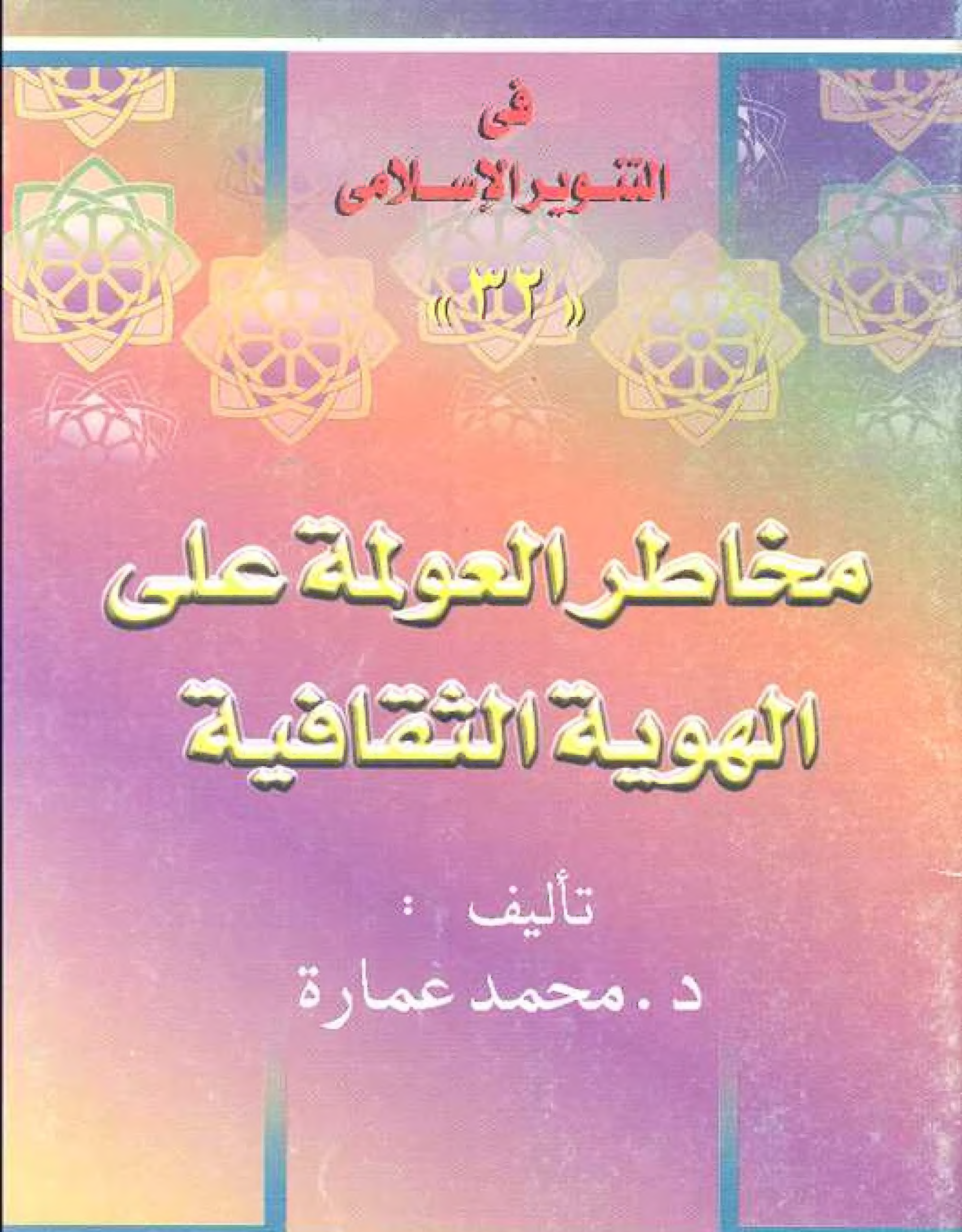

في
التنوير الإسلامي
« ٣٢ »
مخاطر العولمة على
الهوية الثقافية
تأليف :
د . محمد عمارة

في التنوير الإسلامي ٣٢

مخاطر العولمة على الهوية الثقافية

تأليف
د. محمد عمارة



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



اسم الكتاب: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية

اسم المؤلف: د / محمد عمارة

تاريخ النشر: فبراير ١٩٩٩م . (طبعة أولى)

رقم الإيداع: ١٧٣٧ / ١٩٩٩م .

الترقيم الدولى: I . S . B . N 977 - 14 - 0901 - 8

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة .

مدينة السادس من أكتوبر .

ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ . (١٠ خطوط)

فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥

فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة .

إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤

فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .

بسم الله الرحمن الرحيم

تحرير مضامين المصطلحات

من العيوب القاتله فى حواراتنا الفكرية المعاصرة ، استخدام وترديد العديد من المصطلحات دون ضبط وتحرير لمفاهيم ومضامين هذه المصطلحات . .

وإذا كان أسلافنا قد قالوا : «إنه لا مُشَاحَة فى المصطلح» . . فإن هذه المقولة صادقة فيما يتعلق باستخدام المصطلح . . أما فى مضامين ومفاهيم المصطلح ، فكثيرا ما تكون هناك مشاحة ، عندما تتوحد المصطلحات ، مع تغاير وتمايز مفاهيمها ومضامينها فى الحضارات المختلفة والتيارات الفكرية المتباينة . .

فمصطلح «السياسة» واحد ، تستخدمه - دون مشاحة - مختلف تيارات الفكر ، بمختلف الفلسفات والديانات والحضارات . . بينما مضمون هذا المصطلح مختلف ومتمايز باختلاف الحضارات والفلسفات . .

فالسياسة عند ميكافيلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) - وفى الفكر الأوربى - هى «فن الممكن من الواقع . . والتحليل لعلاقات القوة التى تمارس من خلال عملية الحكم ، وفى إطار الدولة . .»

فهى فكر وعمل ، يعتمدان الصراع والقوة ، لتحقيق الممكن من بين خيارات الواقع ، وذلك دونما ضابط من القيم والأخلاق[1] .

---

(١) (قاموس علم الاجتماع) - تحرير ومراجعة - : د. محمد عاطف غيث . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

بينما نجد لذات المصطلح - السياسة - فى النسق الفكرى الإسلامى - والسياسة الشرعية - مفهوما مغايرا ، يجعلها مضبوطة بمنظومة القيم الإسلامية . . «فهى الأفعال والتدابير التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد . . أى استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجى فى العاجل والآجل ، وتدبير المعاش مع العموم على سنن العدل والاستقامة . .»(٢)

فهى مضبوطة بمعايير العدل الإسلامى وفلسفة الاستقامة الدينية ومنظومة القيم والأخلاق . . ولا تقف مقاصدها عند المنافع التى تحقق الإشباع الدنيوى للإنسان ، وإنما تربط صلاح الدنيا بسعادة الآخرة ، التى هى خير وأبقى للإنسان . .

فالمصطلح واحد ، لا مشاحة فى استخدامه من قبَل مختلف الحضارات والفلسفات والأنساق الفكرية . . لكن هناك اختلافات - ومن ثم مشاحة - فى المضامين والمفاهيم ، تستدعى وتستوجب تحرير مضامين المصطلحات ، التى اختلفت مضامينها - وخاصة بعد الاحتكاك الحضارى بين الغرب والإسلام - وذلك حتى لا تكون حواراتنا «حوارات طرشان» ، يرددون ذات المصطلحات ، بينما يفهم كل فريق مالا يخطر ببال الآخرين ! . .

ومثل مصطلح «السياسة» - فى هذا المقام - مصطلح «العدل» ، الذى يتحدث عنه الجميع ، بينما تختلف مضامينه فى الليبرالية

---

(٢) ابن القيم (إعلام الموقعين) جـ ٤ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م . و (الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) ص ١٧ - ١٩ ، ٥ . تحقيق : د . جميل غازى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م . وأبو البقاء الكفوى (الكليات) تحقيق : د . عدنان درويش ، ومحمد المصرى . طبعة دمشق سنة ١٩٨٢ م .

الرأسمالية عنها فى الشمولية الشيوعية ، ناهيك عن مضامين العدل فى فلسفة ونظرية الاستخلاف فى الإسلام . .

وكذلك الحال مع مصطلح «الدِّين» . . الذى هو فى الإسلام - والديانات السماوية - : وضع إلهى . . بينما هو ، فى الفلسفة الوضعية : إفراز بشرى ، وبناء فوقى لطور من أطوار الاجتماع الإنسانى فى مرحلة طفولة العقل البشرى ! . .

ونفس الشئ بالنسبة لمصطلح «الإقطاع» . . الذى هو - فى تراثنا الدينى والحضارى - : تمليك منفعة الأرض الموات لإحيائها . . بينما هو فى الفكر الغربى : امتلاك الأرض وما عليها - من أدوات - ومن عليها - من فلاحين - عبيدا كانوا أم أقنانا ! . .(٣)

لذلك - وحتى لا يكون حوارنا حول «الثقافة والهوية العربية الإسلامية فى ظل العولمة» - حوار طرشان ، لابد من البدء بتحرير مضامين مصطلحات هذا الموضوع . .

● إن الثقافة - فى النسق الفكرى الإسلامى - : هى كل ما يسهم فى عمران النفس وتهذيبها . . فالتثقيف ، من معانيه : التهذيب . . وإذا كانت «المدنية» هى تهذيب الواقع بالأشياء ، فإن الثقافة هى تهذيب النفس الإنسانية بالأفكار والعقائد والقيم والآداب والفنون - وكلاهما - الثقافة والمدنية - عمران . . عمران للنفس وعمران للواقع ، ولذلك مثّلا شقى الحضارة - التى هى «العمران» - . .

وبسبب من تعلق الثقافة واختصاصها بعمران النفس الإنسانية

---

(٣) د . محمد عمارة (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) ص ١٤ - ٢٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧ م .

وتهذيبها ، تمايزت الثقافات بتمايز الحضارات ، بينما مثلت «المدنية» - غالبا - المشترك الإنساني العام بين الحضارات .. ولقد جاء مبعث التمايز فى الثقافات كثمرة لتميز النفس الإنسانية ، فى كل حضارة من الحضارات ، وذلك لتميز المكونات والمواريث والعقائد والفلسفات والعادات والأعراف التى ما يزت بين «البصمات» الثقافية فى أمم هذه الحضارات ..

هذا عن مفهوم «الثقافة» .. وتميزها بتمايز الحضارات ..

● أما الهُوِيَّة - فى عرف حضارتنا العربية الإسلامية - : فإنها مأخوذة من «هُوَ .. هُوَ» .. بمعنى أنها جوهر الشىء .. وحقيقته ، المشتملة عليه اشتمال النواة على الشجرة وثمارها[٤] .. فهوية الإنسان .. أو الثقافة .. أو الحضارة ، هى جوهرها وحقيقتها .. ولما كان فى كل شىء من الأشياء - إنسانا أو ثقافة أو حضارة - «الثوابت» و «المتغيرات» .. فإن هوية الشىء هى «ثوابته» ، التى «تتجدد» ولا «تتغير» .. تتجلى وتفصح عن ذاتها ، دون أن تخلى مكانها لنقيضها ، طالما بقيت الذات على قيد الحياة! .. إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان ، يتميز بها عن غيره ، وتتجدد فاعليتها ، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب ، دون أن تخلى مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات .

* * *

وإذا ما تساءلنا عن هوية ثقافتنا العربية الإسلامية ، التى هى جوهرها وحقيقتها وثوابتها ، فإننا نستطيع أن نقول : إن الإسلام،

---

(٤) الجرجانى - الشريف - (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

منذ أن تدينت به أغلبية هذه الأمة قد أصبح هو الهوية الممثلة لأصالة ثقافة هذه الأمة .. فهو الذى طبع ويطبع وصبغ ويصبغ ثقافتها بطابعه وصبغته .. فعاداتها وتقاليدها وأعرافها ، وأدابها وفنونها ، وسائر علومها الإنسانية والإجتماعية ، وفلسفة علومها الطبيعية والتجريبية .. ونظرتها للكون ، وللذات ، وللآخر .. وتصوراتها لمكانة الإنسان فى هذا الكون .. من أين أتى ؟ وإلى أين ينتهى ؟ وحكمة هذا الوجود وغايته ؟ .. ومعايير المقبول والمرفوض ؛ والحلال والحرام فى المسيرة الحياتية لإنساننا .. كل ذلك - وما ماثله - قد انطبع بطابع الإسلام ، واصطبغ بصبغته .. حتى لنستطيع أن نقول ، ونحن مطمئنون كل الاطمئنان : **إن ثقافتنا إسلامية الهوية، وأن معيار الدخول والخروج فى ميدان ثقافتنا، والقبول والرفض فيها، هو المعيار الإسلامى ..**

وإذا كان إسلام العقائد والعبادات خاصا بالأغلبية المسلمة من أمتنا ، فإن إسلام الثقافة والقانون والقيم والحضارة هو صبغة وصيغة جامعة للأمة كلها ، على اختلاف مللها وشرائعها .. وعن هذه الحقيقة - حقيقة إسلامية الهوية - لكل أبناء الأمة ، يقول واحد من أبرز المفكرين القوميين - ميشيل عفلق - (١٣٢٨ - ١٤٠٩هـ ١٩١٠ - ١٩٨٩م) : **«لا يوجد عربى غير مسلم .. فالإسلام هو تاريخنا، وهو بطولاتنا، وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون .. إنه الثقافة القومية الموحَّدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .. وبهذا المعنى لا يوجد عربى غير مسلم، إذا كان هذا العربى صادق العروبة، وإذا كان متجردا من الأهواء ومتجردا من المصالح الذاتية .. وإن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها**

ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم.. ولئن كان عجبي شديداً للمسلم الذي لا يحب العرب، فإن عجبي أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام..»[٥]

إذن .. فهويتنا الثقافية هوية إسلامية .. وعلى هذه الحقيقة تجمع تيارات الأصالة الفكرية والسياسية في بلادنا - إسلامية وقومية - بلسان أبرز منظريها، مسلمين ومسيحيين ..

وإذا كنا قد أوردنا «**شهادة قومية**» على إسلامية هويتنا الثقافية، فإن كلمات القاضي العادل والقانوني البارز والمشرع الفذ، الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا (١٣١٣ - ١٣٩١هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١م) في هذه القضية، هي «**شهادة الاسلاميين**» في هذا الموضوع .. لقد قال السنهوري: «**أريد أن يعرف العالم أن الإسلام دين ومدنية - (حضارة) - وأن تلك المدنية أكثر تهذيباً من مدنية الجيل الحاضر.**

والرابطة الإسلامية يجب أن تفهم بمعنى المدنية الإسلامية، وأساس هذه الرابطة الشريعة الإسلامية..

وفي الإسلام، إلى جانب الدين، توجد المدنية، فأما الذين يؤمنون بتعاليم الدين فأولئك هم المسلمون، وأما الذين ينتمون إلى الثقافة الإسلامية فأولئك هم أولاد ذلك الوطن الاسلامي الكبير، وقد وسع المسلمين والنصارى واليهود، عاشوا جميعاً تحت علم الاسلام طوال هذه القرون..

وما عسى أن تكون تلك الثقافة الإسلامية؟ أليست هي روح

---

(٥) ميشيل عفلق (الكتابات السياسية الكاملة) جـ ٣ ص ٣٣، ٢٦٩ وجـ ٥ ص ٦٨ طبعة بغداد سنة ١٩٨٧م وسنة ١٩٨٨م.

الشرق، تمثلت علوما وفنونا وفلسفة؟ ألم يبن صرح هذه الثقافة عقول شرقية، تنتمي كلها إلى الاسلام، وإن كان ليس كلها مسلما؟

وبهذا المعنى الأخير يكون الإسلام والشرق شيئا واحدا.. فالشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق.. والمدنية الإسلامية هي ميراث حلال للمسلمين والمسيحيين واليهود من المقيمين في الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية..»[٦].

هكذا شهدت وتشهد تيارات الأصالة - الإسلامية والقومية - على إسلامية هويتنا الثقافية ..

* * *

ومع الإسلام، في مكونات الهوية الثقافية، **تأتي لغتنا العربية**، التي هي لسان الإسلام ووحيه المعجز، والتي ضمن لها القرآن الكريم - منذ نزل بها - امتيازا على كل لغات الدنيا، هو الخلود الذي أراده الله لهذا القرآن، والحفظ الذي ضمنه الله لهذا الذكر الحكيم .. فمع أنها - كلغة - هي مواضعات بشرية، إلا أن ارتباطها بالقرآن - المطلق - قد ضمن لها وحقق فيها قدرا عظيما من الإطلاق الذي يتميز به الدين ونبأ السماء العظيم ..

ومع الإسلام، والعربية - في مكونات هويتنا الثقافية - **يأتي التاريخ** .. الذي تميز هو الآخر - في حضارتنا الإسلامية - بأنه تاريخ الأمة كما هو تاريخ الدين، ووعاء الذكريات الحافظ لخلود

---

(٦) د. عبد الرزاق السنهوري (أوراقه الشخصية) ليون في ١١ - ١١ - ١٩٢٢م ولاهاي في ١٥ - ٨ - ١٩٢٤م وليون في ١٨ - ١٠ - ١٩٢٣م. إعداد: د. نادية السنهوري. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م. و (الإسلام والشرق) ملحق صحيفة السياسة الأسبوعية - القاهرة - في ١٤ - ١٠ - ١٩٣٢م.

الأمة عبر الزمان والمكان .. فهو حتى عندما يؤرخ «للوطن» فإن الوطن فيه هو شرط إقامة الدين .. وعندما يؤرخ «للدولة» ، فإن الدولة فيه هى حارسة الدين ، والمسوسة بهذا الدين .. ففى ثقافتنا - كما هو الحال فى حضارتنا - هناك امتزاج ما بين النسبى والمطلق ؛ لأن الاسلام - بعبارة السنهورى باشا - «هو دين الأرض كما هو دين السماء»[7] .. وبعبارة ميشيل عفلق : «إن أمتنا لا يمكن أن تستطيب شيئا أقل من مستوى الوحى الإلهى .. الشىء السماوى .. والذى هو متجسد فى عقل بشرى .. فتجربتها ، من خلال الإسلام ، فيها شىء مطلق .. فى حين أن كل شىء فى تجارب الأمم الأخرى نسبى ، ليس فيه الخلود ..»[8]

هذا عن ثقافتنا .. والهوية الإسلامية لهذه الثقافة العربية الإسلامية ..

* * *

● أما «العولمة» .... فإن تحرير مضمون مصطلحها لابد أن يبدأ بالتمييز بينها وبين «العالمية» ..

ذلك أن «العالمية» نزوع فى الأفكار والفلسفات والآداب والفنون والثقافات والحضارات ، يجعلها وإن امتلكت وتميزت بالخصوصية فإنها تجمع بين هذه الخصوصية - وأحيانا المحلية - وبين النزوع إلى العالمية والكونية .. فالأدب العالمى هو الذى يتميز بالخصوصية

---

(٧) د . عبد الرزاق السنهورى (نبى المسلمين والعرب) مجلة الذكرى - بغداد سنة ١٩٣٦ م .

(٨) ميشيل عفلق . مجلة (آفاق عربية) ص ٥ - ٧ عدد إبريل سنة ١٩٧٦م . وانظر كتابنا (التيار القومى الإسلامى) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧ م

الوطنية والقومية ، وفى ذات الوقت تدخل به نزعته الإنسانية إلى العالمية . . وفى الإسلام ، الذى مثل الرسالة العالمية ، على حين كانت الرسالات السابقة عليه محلية . . والذى تحددت عالميته منذ المرحلة المكّية ، وفى آيات القرآن المكّية ﴿ تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[9] ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (107) ﴾[10] ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾[11] . . فى هذا الإسلام العالمى ، تتعايش عالميته مع الخصوصيات التى تميز ثقافته ، وتميز فقه معاملاته ، الذى يراعى ظروف المكان ومقتضيات الزمان ، والعادات والتقاليد والأعراف .

فالأصول ، المتمثلة فى العقائد والعبادات ومنظومة القيم والأخلاق عالمية ومطلقة وخالدة ، بينما الفروع ، المتمثلة فى الفقه للواقع - سياسات وثقافات وقوانين - تتعايش فيها مقادير من «الأصول العالمية» ومقادير من «الخصوصيات المحلية» ، لأنها جامعة بين «فقه الأحكام» - وهو من الأصول العالمية - وبين «فقه الواقع» - وهو من الخصوصيات والمحليات . .

وكذلك حال عالمية الحضارة الإسلامية ، فيها من العالمية صبغتها الإسلامية الضابطة لمنظومة القيم فيها ، ومقاصدها التى تتغياها لإنسانها . . وفيها من الخصوصيات ما تقتضيه دواعى الزمان والمكان والمصالح المتغايرة والأعراف المختلفة باختلاف الزمان والمكان . .

---

(9) الفرقان : 1 .

(10) الأنبياء : 107 .

(11) يوسف : 104 .

وعالمية الإسلام، كدين، تميزه عن انغلاق اليهودية، كدين .. وعالمية الحضارة الإسلامية : كنزوع وقابلية للتمدد والعطاء، عبر الزمان والمكان، تميزها عن محلية حضارات مثل حضارات الهند والصين واليابان .. لذلك كان التنافس الحضارى، تاريخيا، بين الحضارتين الإسلامية والغربية، لعالميتهما بينما وقفت المنافسة بين الغرب واليابان عند «صادرات مصانعها»، وليس «عالمية حضارتها» !

وإذا كان الإسلام قد جعل «عالميته» خيارا واختيارا لا قسر فيه ولا إكراه، عندما أعلن قرآنه الكريم ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾[١٢]، لأن الإيمان - فيه - هو : تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين .. وهو مالا يتأتى بالإكراه؛ لأن الإكراه يثمر «نفاقا» لا إيمانا ! ..

إذا كان هذا حال الإسلام الدين، فكذلك الحال مع الحضارة التى اصطبغت بصبغة الإسلام الدين .. لأنها ثمرة لهذا الدين الذى لا إكراه فيه ..

فالنزوع إلى العالمية، هنا قرين بالحرية والاختيار ..

وكذلك الحال - أو يجب أن يكون - مع ما تتوافق عليه الأمم والشعوب والدول والحضارات، مما يطلق عليه فى عصرنا : «الشرعية الدولية» و «النظام العالمى» و «المواثيق الدولية» و «القوانين الدولية» .. إذ يجب أن تكون ثمرة لما تتوافق عليه - بالحرية والاختيار - الأمم والشعوب والدول والحضارات، مما يمثل

(١٢) البقرة : ٢٥٦ .

«قاسما مشتركا» بينها ، أى القدر العالمى ، الذى لا يقهر ولا يقسر ولا يدمر خصوصيات وتمايزات هذه الأمم والحضارات . .

فالعالمية هى ثمرة للتفاعل الحر والاختيارى بين الحضارات المتعددة والمتمايزة، تمثل القاسم المشترك والجامع لهذه الأمم والحضارات .. أى المشترك الإنسانى العام بينها، والذى لا ينفى تمايزها فى الخصوصيات والمحليات..

* * *

لكن «**العولمة**» - التى يدور عنها الحديث الآن - تعنى شيئا مغايرا لهذه «العالمية» . . وإن شئنا الدقة ، **فإنها القسر والقهر والإجبار على لون من الخصوصية، يعولمه القهر ليكون عالميا!** فالمنظومة العالمية : هى حاصل جمع خصوصيات حضارية تصبح عالمية بالتوافق والحرية والاختيار . . بينما العولمة هى قسر وقهر يعولم خصوصية حضارية بعينها ، عندما تجتاح خصوصيات المقهورين . . ففى العالمية يختار الإنسان ، وفى العولمة لا اختيار للإنسان ، الذى يُحشر ويُشحن فى القطار الذى صنعه ويقوده الأقوياء ! . .

بل إن مصطلح العولمة ذاته شاهد على أنها قسر وقهر لا حرية فيها ولا اختيار . . فهو مثل غيره من المصطلحات التى أتت وتأتى على «وزنه الصَّرْفى» - فَعْلَلَة - . . من مثل «القولبة» - أى القسر والقهر على قالب غير ملائم - . . و «الفَرْنسة» - أى القهر على أن يصبح غير الفرنسيين فرنسيين - . . ومثل ذلك : «الرَّوسنة» -

جعل غير الروس روسا - . . و «الجلنزة» - جعل غير الانجليز انجليزا - . . و «الأمركة» . . وكذلك «الفَبْرَكة» . . و «العَكْنَنة» . . و «الشُوْشرة» . . إلى آخر ما يأتى على هذا «الوزن الصرفى» من مصطلحات . .

إن العولمة هى إجتياح الشمال للجنوب .. إجتياح الحضارة الغربية ممثلة فى النموذج الأمريكى للحضارات الأخرى .. وهى التطبيق العملى لشعار «نهاية التاريخ»، الذى أرادوا به الادعاء بأن النموذج الغربى الرأسمالى هو «القدر الأبدى» للبشرية جمعاء، وهو تطبيق يستخدم - فى عملية الاجتياح - أسلوب «صراع الحضارات»، الذى يعنى - فى توازن القوى الراهن - أن تصرع الحضارة الغربية ما عداها من الحضارات..



لكن . . وبعد هذا الضبط والتحرير لمفاهيم مصطلحات «الثقافة» و «الهوية» و «العالمية» و «العولمة» . . . هل نحن ، بإزاء هذا القسر والقهر والإجتياح الغربى لثقافتنا وهويتنا ، أمام أمر محدث وجديد ؟ . . أم أن لأمتنا وثقافتنا - الشرقية . . والإسلامية - تاريخا طويلا وقديما مع هذا القهر والقسر والاجتياح ؟

● لقد عاش الشرق تحت هيمنة الغرب عشرة قرون : بدأت بفتوحات الاسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م) وانتهت بفتوحات الإسلام التحريرية فى القرن السابع الميلادى . . وفى ظل تلك الغزوة حدث تغريب لثقافة الشرق ، وقهر حتى لعقائده الدينية ؛ وساد الفكر الهلينى بمدارس الشرق الفلسفية طوال تلك القرون ، وكانت الحاكمية للقانون الرومانى حتى جاءت الشريعة الاسلامية فحررت العقل القانونى الشرقى من قوانين جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) بعد أن حررت جيوش الفتح الاسلامى أوطان الشرق من جيوش الروم البيزنطيين . .

● ولما عاد الغرب تحت أعلام الصليب (٤٨٩هـ ١٠٩٦م) ليستعيد الشرق من الإسلام ، لم تكن لدى الغرب يومئذ حضارة مزدهرة تغرى بالاستلهام . . بل كان فرسان إقطاعه - كما وصفهم الأمير الفارس أسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤هـ ١٠٩٥ - ١١٨٨م)

- « مثل البهائم ، ليست لديهم سوى فضيلة القتال» ! . .
فكانت غزوة عسكرية صرفة ، طويت كل صفحاتها ، وزالت كل آثارها عندما انهدمت قلاعها وحصونها ، وأجليت حامياتها العسكرية . . .

● لكن الغرب عاد مرة ثالثة ، في الغزوة الاستعمارية الحديثة ؛ التي بدأت الالتفاف حول العالم الإسلامي في نفس العام الذي سقطت فيه غرناطة (٨٩٧هـ ١٤٩٢م) وتم فيه اقتلاع الإسلام من غرب أوربا .. ثم اقتحمت قلب عالم الاسلام - الوطن العربي - بحملة بونابرت على مصر (١٢١٣هـ ١٧٩٨م) . .

وفي هذه الغزوة الحديثة - التي تصاعدت بلواها حتى عمت بمعاهدة «سيكس - بيكو» (١٣٣٤هـ - ١٩١٦م) ووعد بلفور ١٣٣٦هـ - ١٩١٧م) واسقاط الخلافة الإسلامية (١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤م) - كان لدى الغرب من الحضارة والثقافة مايغري .. فمارس غواية الشرق، في الثقافة والقيم مع حرمانه من العلم الذي يحتاج ! .. لكن ظلت العلاقة بينه وبيننا في حدود «الغواية» و «الترغيب والترهيب»، فلم نفقد حريتنا في الاختيار ..

ولقد بدأ الغرب غوايته من ثغرات الأقليات . .

فبونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) قد أعلن - وهو في الطريق إلى مصر - أنه سيجند عشرين ألفا من أبناء الأقليات ، ليكونوا جنوده ومواطئ لأقدامه في بناء امبراطوريته الشرقية . . وفي سبيل ذلك أصدر نداءه إلى يهود العالم - وهو على أبواب «عكا» سنة ١٧٩٩م - ليعقدوا معه الشراكة ، التي بدأت وتطورت واستمرت بين اليهود والغزوة الغربية حتى الآن ! . .

وفي سبيل هذه الغواية كوّن بونابرت من شباب الأقباط والنصارى الشوام والأروام - بمصر - فيلقا حربيا ، بقيادة المعلم يعقوب حنا (١١٥٨ - ١٢١٦هـ / ١٧٤٥ - ١٨٠١م) .. الذي عهد إليه خليفة بونابرت - الجنرال كليبر (١٧٥٣ - ١٨٠٠م) - «بأن يفعل في المسلمين مايشاء .. حتى تطاولت النصارى، من القبط والنصارى الشوام، على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانا، وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين» - كما يقول مؤرخ العصر عبد الرحمن الجبرتي (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ / ١٧٥٤ - ١٨٢٢م)[(١٣)]

● وحتى بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر (١٢١٦هـ-١٨٠١م) كانت غواية الترغيب والترهيب قد جعلت للتغريب جماعة - من أنصار المعلم يعقوب حنا - خرجوا في ركاب جيش الاحتلال ، وأخذوا يلحون على بونابرت - في باريس - أن يستعملهم في تغريب مصر وافريقيا ، فكتبوا إليه يقولون : «إن الوفد المصري ، الذي فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك، سيشرع لمصر ماترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا..»[(١٤)]..

فكانت هذه هي بداية الغواية بإحلال النظم والتشريعات الأوربية محل نظائرها الإسلامية ، منذ أن تحرر الشرق من النظم والقوانين الرومانية ، بالفتوحات الإسلامية ، في القرن السابع للميلاد ..

---

(١٣) (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) جـ ٥ ص ١٣٤ ، ١٣٥ تحقيق : حسن محمد جوهر ، وعمر الدسوقي ، والسيد ابراهيم سالم ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

(١٤) د . أحمد حسين الصاوي (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ١٢٩ ، ١٣٠ - الملحق رقم (٧) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

● وفى مرحلة «غواية الترغيب والترهيب» هذه ، نجح الفرنسيون فى جعل «لبنان المارونى» وكأنه «مدرسة إرساليات» ، تضخ التغريب فى محيطه العربى والاسلامى .. وتحدثت عن هذه «الرسالة» مراسلات قناصلهم فى بيروت ، فقالت : «إن حكومة فرنسا ستخلق بين هذه العائلات المارونية، من خلال نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين نقاط اتصال جديدة معها ومع البلد، ورموزا جديدة وثمينة للاعتراف بفضلها.. وإن خدمة المصالح الدينية يعني خدمة الحضارة، التي هي في الوقت نفسه مصالح السياسة الفرنسية.. في جعل سوريا حليفا أكثر أهمية من مستعمرة.. وتأمين هيمنة بلدنا على منطقة خصبة ومنتجة.. وتكوين جيش متفان لفرنسا في كل وقت، وذلك حتى تنحني البربرية العربية لا إراديا أمام الحضارة المسيحية لأوربا..»[١٥] !..

هكذا أفصحت مراسلات القناصل عن مقاصد مدارس الإرساليات الفرنسية ، فى تكوين «جيش ثقافى» مارونى ، يحقق - إلى جانب الميزات المادية للاستعمار - التغريب ، الذى يجعل حضارتنا - (البربرية - كما قالوا) - تنحنى - لا إراديا - أمام الحضارة المسيحية الأوربية ! ..

ولقد حققوا - بفعل الغواية .. والترغيب والترهيب - بعضا من هذه المقاصد التى حددوها ..

- فأول من نادى بإحلال اللهجات العامية محل اللغة الفصحى - وذلك حتى تنقطع أوصال الأمة .. وتقوم القطيعة المعرفية بينها وبين دينها وتراثها ، فتفقد إسلامية هويتها ، وذاكرتها التاريخية -

---

(١٥) محفوظات الخارجية الفرنسية لسنوات ١٨٤٠ - ١٨٤٢م ؛ ١٨٤٨ ، ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ م .

أول من نادى بذلك، هو أمين شـمـيل (١٢٤٣ - ١٣١٥هـ / ١٨٢٨ - ١٨٩٧م) .. وهو مارونى، من خريجى هذه المدارس التى أقامتها هذه الإرساليات .. نادى بذلك - فى مصر - سنة ١٨٨١م .. ويومها رد عليه العالم المجدد عبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٣هـ / ١٨٤٥ - ١٨٩٦م) بمقال فى صحيفة «التنكيت والتبكيت» جعل عنوانه: «**إضاعة اللغة تسليم للذات**»! ..

- وأول من نادى بالمادية والإلحاد هو شبلى شميل (١٢٧٦ - ١٣٣٥هـ / ١٨٦٠ - ١٩١٧م) - أحد خريجى هذه المدارس الإرسالية ..

- وأول من نادى بعلمانية الدول والقانون، واحد من خريجى هذه المدارس - هو فرح أنطون (١٢٩١ - ١٣٤٠ هـ / ١٨٧٤ - ١٩٢٢م) ..

- ولقد أقام هذا «الجيش المارونى المتفانى فى خدمة الحضارة المسيحية الأوربية»، لتحقيق هذه المقاصد - مقاصد انحناء حضارتنا، لا إراديا، أمام الحضارة الأوربية أقام - مؤسسات ثقافية وفكرية وإعلامية .. من مثل صحيفة «المقطم» (١٣٠٦ - ١٣٧١ هـ ١٨٨٩ - ١٩٥٢م) التى وصفها عبد الله النديم بأنها: «**الصحيفة الانجليزية التي تصدر في مصر**»! .. ومن مثل «المقتطف» (١٢٩٣ - ١٣٧١ هـ / ١٨٧٦ - ١٩٥٢م) - التى كانت ديوان التبشير بنظريات العلم المادى الغربى .. حتى لقد وصف عبد الله النديم «الجيش» الذى يحرر صفحاتها، بأنهم: «**أعداء الله وأنبيائه، الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يتدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر**

الطبيعة والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق، وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان ...»[١٦]

● ولقد تتلمذ على يدى هذا «الجيش التغريبى المتفانى» مثقفون بلغت بهم الكراهية للإسلام ، والاستهانة بمطلق الإيمان الدينى ، حد «العمالة الحضارية للغرب» . . من مثل سلامة موسى (١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٨م) - الذى لخص مذهبه فقال - : «كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة . . . توضحت أمامى أغراضى . . وهى تتلخص فى أنه :

- يجب علينا أن نخرج من آسيا[١٧] وأن نلحق بأوربا، فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له، وشعورى بأنه غريب عنى، وكلما زادت معرفتى بأوربا، زاد حبى لها، وتعلقى بها، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها.. فالرابطة الشرقية سخافة.. والرابطة الدينية وقاحة.

- أريد تعليما أوربيا، لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه.

- وحكومة كحكومات أوربا.. لا كحكومة هارون الرشيد والمأمون.

- وأدبا أوربيا.. أبطاله مصريون.. لا رجال الفتوحات العربية.

- وثقافة أوربية.. لا ثقافة الشرق.. ثقافة العبودية والتوكل على الآلهة.

---

(١٦) مجلة (الأستاذ) العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٢٣ ، ٩٢٤ .

(١٧) آسيا - فى عرف الاستشراق - تعنى : الإسلام . . وهى تعنى ذلك عند سلامة موسى ، بدليل أن الرجل كان يعيش فى مصر - الإفريقية - وليس فى القارة الآسيوية .

- واللغة العامية - لغة الهكسوس - لا العربية الفصحى، لغة التقاليد العربية والقرآن.

- والتفرنج في الأزياء، لأنه يبعث فينا العقلية الأوربية.

هذا هو مذهبي، الذى أعمل له طول حياتي، سرا وجهرة، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب[18].

● وانبهر بهذا «النموذج الغربي» - الذى بشر به هذا «الجيش المتفاني» - مثقفون، عادوا عن «اجتهادهم الخاطئ» فى مرحلة النضج الفكرى .. من مثل الدكتور طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م)

- الذى كتب فى مرحلة انبهاره يقول - : «إن كل شيء يدل على أنه ليس هناك عقل أوربي يمتاز عن هذا العقل الشرقي الذى يعيش فى مصر وما جاورها .. وإنما هو عقل واحد .. مرده إلى عناصر ثلاثة:

١ - حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن.

٢ - وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه.

٣ - والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان.

وإذا صح أن المسيحية لم تخرج العقل الأوربي عن يونانيته، فيجب أن يصح أن الإسلام لم يغير عقل الشعوب التى اعتنقته، والتى كانت متأثرة بالبحر الأبيض المتوسط .. فجوهر الإسلام ومصدره هما جوهر المسيحية ومصدرها، والقرآن إنما جاء متمما ومصدقا لما فى

(١٨) سلامة موسى (اليوم والغد) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م. وانظر - كذلك - كتابنا (الإسلام بين التنوير والتزوير) ص ٩٧ - ١٥٧. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

الإنجيل .. فالسبيل واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يُحب منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب .. ولقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع ...»(١٩)

● وهذا الذي كان ينفذه في المشرق العربي «الجيش الثقافي» من خريجي مدارس الإرساليات - في ظل حراب الاستعمار - كانت تنفذه - في المغرب العربي - الإدارة الفرنسية الاستعمارية - تنفذ ذات المقاصد : محو الهوية الثقافية الإسلامية - واستخدام الترغيب والترهيب في تعميم النموذج الغربي ببلادنا ، وإحلال منظومة قيمهم ، بل ولغتهم وقوانينهم ؛ محل نظائرها العربية والاسلامية . . لقد أرادوا فصل الإسلام عن اللغة العربية ، وفصل القانون عن الشريعة الإسلامية ؛ وذلك لإحلال الفرنسية محل العربية ، وإحلال القانون الفرنسي محل فقه المعاملات الإسلامي ، وتحويل الاسلام إلى عقيدة لا سلطان لها في المجتمع والدولة والحياة . . وتحويل العربية إلى لغة ميتة تشبه اللاتينية . . وقالوا عن مقاصدهم هذه : «إن الأسلحة الفرنسية هي التي فتحت البلاد العربية، وهذا يخولنا حق اختيار التشريع الذي يجب تطبيقه في هذه البلاد، لذلك يجب أن نفصل بين الاسلام والاستعراب، فالعربية هي رائدة الإسلام، لأنها تُعَلَّم من القرآن .. وفصل الدين عن القانون

---

(١٩) (مستقبل الثقافة في مصر) جـ ١ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م .

المدنى.. وإدماج العرف فى القانون الفرنسى، بدلا من أن نراه يندمج فى القانون الإسلامى.. وحصر الإسلام فى الاعتقاد وحده.. وبهذا لا يهمنا كثيرا أن يضم الإسلام الشعب كله، أو أن آيات من القرآن يتلوها رجال بلغة لا يفهمونها. فالديانة الكاثوليكية تستعمل اللغة اللاتينية والإغريقية والعبرانية فى قداديسها!»[٢٠]..

تلك هى الجذور والخلفيات، التى مثلت مقاصد وإنجازات الغزوة الغربية لوطن العروبة وعالم الإسلام، على امتداد القرنين الماضيين.. وفى مرحلة «غواية الترغيب والترهيب»...

وعند هذا الحد: نتساءل:

– ما الجديد، الذى جعل الغرب ينتقل – فى علاقاته بنا – من مرحلة غواية الترغيب والترهيب، التى لم تفقدنا حرية الاختيار بإطلاق – إلى مرحلة «العولمة»، عولمة نموذجه القيمى والثقافى والحضارى، التى تجتاح – ضمن ما تجتاح – ما كان لنا – إزاء التغريب – من حرية واختيار؟؟..

(٢٠) محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٥٧ – ٥٩ طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

مرحلة العولمة

إن تطور علاقة الغرب بالشرق - والشمال بالجنوب - من مرحلة غواية الترغيب والترهيب - التى لم نفقد فيها كل حرياتنا فى الاختيار - إلى مرحلة العولمة ، والقسر والقهر الذى يريد نفى كل الحدود والسدود ، واجتياح كل ألوان الحرية والاختيار .. ليس مبعثه ضعف فينا الآن أكثر مما كنا عليه فى المرحلة السابقة .. بل ربما كان العكس هو الصحيح .. فأمتنا الآن فى مرحلة استيقاظ .. وإغراء الغواية التغريبية هو الآن أقل تأثيرا فينا مما كان عليه فى السابق ، رغم تعاظم سطوة المؤسسات التى تبث وتصدر التغريب .. وذلك لأن عيوب النموذج الغربى وأمراضه قد ظهرت الآن أكثر مما كانت ظاهرة فى القرنين الماضيين .. وحال المتغربين من مثقفينا هو الآن أكثر بؤسا وأعظم إفلاسا من حالهم إبان بواكير الانبهار بالتغريب ..

وأيضا .. فليس المرجع فى تعاظم مخاطر التغريب ، والوصول إلى عولمته ، هو زيادة قوة الغرب الآن عما كانت عليه فى المرحلة السابقة .. وإنما الجديد، الذى انتقل بالتغريب من مرحلة غواية الترغيب والترهيب إلى العولمة التى تريد القسر والقهر والاجتياح لخصوصياتنا الحضارية والثقافية والقيمية، هو تجاوز الغرب - كحضارة - لمرحلة الصراعات بين دوله القومية، وحقبة الحروب الاستعمارية بين إمبراطورياته.. وأيضا تجاوزه لمرحلة الشقاق

والصراع الاجتماعى بين الليبرالية الرأسمالية والشمولية الشيوعية، فلأول مرة - ومنذ الاحتكاك العنيف بين الغرب وبين أمتنا - يتجاوز الغرب هذه التناقضات العدائية، والصراعات المسلحة.. لقد ضبط الغرب تناقضات مطامعه، عند حدود المنافسة الداخلية، لا الصراع المسلح، فتوحدت قبضته ضد الحضارات الأخرى، واستجمع عافيته المتجبرة، وألغى الهوامش والتناقضات التى كانت تستفيد منها شعوبنا الساعية إلى التحرر الوطنى من استعماره التقليدى.. وأعلن أن نموذجه هو «نهاية التاريخ» و«قدَر البشرية»، وأن «صراع الحضارات» - لا الغواية الحضارية والثقافية - هو الأسلوب الوحيد للتعامل مع الحضارات والأمم غير الغربية.. فكان هذا الجديد هو «العولمة»، التى يدور حولها الحديث! .. عولمة التقنين للنموذج الغربى، والزعم بأنه هو النموذج العالمى، والسعى لفرضه على حضارات الجنوب..

وإذا نحن شئنا نماذج - مجرد نماذج - لهذا الذى يريدونه بنا - باسم العولمة - فإننا واجدون - على سبيل المثال - :

فى منظومة القيم:

فى ظل هيمنة الغرب على المؤسسات الدولية - وخاصة مجلس الأمن الدولى.. الذى أصبح شبيها بمجلس الأمن القومى الأمريكى! - أخذ الغرب يقنن منظومة قيمه فى مواثيق يسميها «دولية» ؛ ليفرضها - باسم الأمم المتحدة - على العالم بأسره - صنع ذلك فى مؤتمر السكان والتنمية - بالقاهرة سنة ١٩٩٤م - وفى مؤتمر المرأة - فى بكين سنة ١٩٩٦ م - ..

وكنموذج لهذه الحقيقة، رأينا تسويد قيم الإباحية الغربية، في وثيقة المؤتمر الدولي للسكان والتنمية، فتجعل:

- الجنس - الذي أسمته «الصحة الجنسية والصحة التناسلية» بمعنى التمتع بأعلى مستوى ممكن من المتعة الجنسية» .. تجعل هذا الجنس، كالغذاء، حقا من حقوق الجسد الإنساني، وذلك بشرط أن يكون «مأمونا ومسئولا»؛ ودونما اشتراط الشرعية والحلال والمشروعية في هذه المعاشرات الجنسية ..

ومع إباحة هذه المعاشرات الجنسية للأفراد - وليس للأزواج فقط - وفي الإطار المثلي - بين الشواذ والشاذات .. الأمر الذي تجاوز احترام الأسرة وحرمتها .. مع جعل هذا «الحق» أيضا للمراهقين والمراهقات .. فالجنس، والحمل، والإجهاض، والولادة حق للجميع ..

وإذا كنا نشكو من أحكام «الباب السابع» في ميثاق الأمم المتحدة، التي تختص شعوبنا بالمحاصرات والعقوبات - فإن «الفصل السابع» من وثيقة مؤتمر السكان يتحدث عن هذه الإباحية الجنسية، فيقول: «إنها حالة الرفاهية البدنية والعقلية والإجتماعية الكاملة، المنطوية على أن يكون الأفراد - (لاحظ تعبير الأفراد) - من جميع الأعمار، أزواجا وأفرادا - (كذا) -، فتيانا وفتيات، مراهقين ومراهقات، قادرين على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونه - (لاحظ عدم اشتراط الحلال والشرعية) - هي: كالغذاء، حق للجميع، ينبغي أن تسعى جميع البلدان

لتوفيره فى أسرع وقت ممكن ، فى موعد لا يتجاوز عام ٢٠١٥[٢١] . . - أى أنه أكثر من «مباح» . . فالسعى لتحقيقه ؛ بجميع البلدان ، فى أسرع وقت ممكن ، وقبل سنة ٢٠١٥م ، واجب على جميع البلدان ! . .

- بل ولا تكتفى هذه الوثيقة بذلك ، وإنما تتجاوز «إباحة هذه الإباحية» إلى حيث تدعو «للتدريب والترويج والتعزيز» لهذا «السلوك الجنسى المأمون والمسئول»[٢٢]

- ولا تكتفى هذه الوثيقة بتعبير «من جميع الأعمار» - الذى يشمل المراهقين والمراهقات - فتذهب لتنص على حقوقهم وحقوقهن فى هذه الاباحية الجنسية ، فتتحدث عن «حماية وتعزيز - (وليس مجرد إباحة) - حقوق المراهقين والمراهقات الناشطين جنسيا فى الصحة الجنسية والتناسلية والسلوك الجنسى المأمون والمسئول . . والخصوصية . . والسرية . . وتنظيم الأسرة ، ورعاية الطفولة المبكرة ، مع تخفيض حالات الحمل للمراهقات ، ومحاربة التمييز ضد الحوامل الشابات ، والحيلولة دون حدوث الزيجات المبكرة ، ولا سيما بإتاحة بدائل تغنى عن الزواج المبكر . . مع إشراك الأبوين والأسر ، والمجتمعات المحلية والمؤسسات الدينية والمدارس ووسائل الإعلام وجماعات الأقران فى القيام بهذه الحماية لهذه الحقوق . . »[٢٣]

---

(٢١) وثيقة برنامج عمل المؤتمر الدولى للسكان والتنمية - المنعقد بالقاهرة ٥ - ١٥ سبتمبر سنة ١٩٩٤م - الترجمة العربية الرسمية - الفصل السابع - الفقرات ١ - ٥ .

(٢٢) المصدر السابق - الفصل السابع - الفقرات ٣٦ ، ٣٤ ، ٣٢ . والفصل الثامن - الفقرات ٣٥ ، ٣١ .

(٢٣) المصدر السابق - الفصل السادس - الفقرات ٧ ، ١١ - والفصل السابع - الفقرات ٢ ، ٥ ، ٩ ، ٤٣ - ٤٦ ، ٤١ والفصل الحادى عشر - فقرة ٨ .

- ولم تكتف هذه الوثيقة بمصطلح «الأفراد» الذى لا يجعل الأسرة قائمة على الزواج الشرعى وحده ، فذهبت لتتحدث عن ضرورة «**تغيير الهياكل الأسرية**» وعن أنه «ينبغى القضاء على أشكال التمييز فى السياسات المتعلقة بالزواج وأشكال الاقتران الأخرى - (أى الاقتران القائم على غير الزواج)[٢٤] - فالهدف - (كما تقول الوثيقة) - هو مساعدة الأزواج والأفراد فى تحقيق أهدافهم الجنسية والتناسلية»

- ومع تغيير «الهياكل الأسرية» تحدثت الوثيقة ، لا عن «مساواة المرأة للرجل» ، وإنما عن «تمكين المرأة»! . . وعن «**دمج الرجل فى المنزل، ودمج المرأة فى المجتمع**» ، فقالت «بوجوب التشديد على مسئوليات الذكور فيما يتعلق بتربية الأطفال ، وأداء الأعمال المنزلية ، وتمكين المرأة واستقلالها ، والتخفيف من مسئولياتها فى العمل المنزلى ، وإدماجها بشكل كامل فى الحياة المجتمعية . . »[٢٥]

تلك نماذج من منظومة القيم الغربية ، التى قننتها وعولمتها الحضارة الغربية ، باسم المنظمة الدولية . . والتى نصت فى وثيقتها على أنه «ينبغى للحكومات أن تلتزم على أعلى مستوى سياسى بتحقيق الغايات والأهداف الواردة فى برنامج العمل ، وأن تقوم بدور قيادى فى تنسيق تنفيذ أعمال المتابعة ورصدها

---

(٢٤) المصدر السابق - الفصل الثانى عشر - فقرة ٢٤ - والفصل الخامس - فقرة ٥ - والفصل الثانى - المبدأ ٧ - والفصل السابع - الفقرات ١١ - ١٢ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ - والفصل الرابع - فقرة ٢١ والفصل السادس - فقرة ٧ .

(٢٥) المصدر السابق - الفصل الرابع - الفقرات ١١ ، ٢٦ ، ٢٩ .

وتقييمها . وإعمال الضمانات وآليات التعاون الدولية لكفالة تنفيذ هذه التدابير»[٢٦]

وحتى عندما أشارت هذه الوثيقة إلى أن «تنفيذ السياسات السكانية حق سيادى لكل أمة» ألغت - فى نفس المبدأ - هذا الحق السيادى ، عندما نصت على «امتثال هذا الحق السيادى للمعايير الدولية لحقوق الإنسان . . » ![٢٧]

هذا عن مثال ونموذج لعولمة منظومة القيم الغربية . .

* * *

وفى حقوق الإنسان :

وكنا نعيب على الغرب - فى مرحلة غواية الترغيب والترهيب - عنصريته فى مفاهيمه لمنظومة حقوق الإنسان . . فجاءت العولمة لتفرض علينا هذه المفاهيم الغربية - العنصرية - عن حقوق الإنسان . .

- فالإنسان ، فى المفهوم الغربى ، هو إنسانه الأبيض ، وليس مطلق الإنسان . .

- والحقوق - بمفاهيمها الغربية - هى وقف على هذا الإنسان الغربى . . أما إنساننا فله الحرمان من هذه الحقوق . . اللهم إلا إذا كان المقصد هو التدخل فى شئوننا الداخلية ، أى انتقاص أو إلغاء حقوقنا فى السيادة الوطنية والقومية ، باسم المعايير والمفاهيم الغربية لحقوق الانسان . .

---

(٢٦) المصدر السابق . الفصل السادس - الفقرة ٧ - والفصل الرابع - الفقرة ٩ .

(٢٧) المصدر السابق - الفصل الثانى - المبدأ ٤ .

- فحق تقرير المصير ، من الحقوق الطبيعية للإنسان .. لكن إنساننا محروم - بسلطان العولمة الغربية - من حق تقرير المصير .. حدث ذلك ويحدث على امتداد عالم الإسلام .. من كشمير .. إلى بورما .. إلى الفلبين .. إلى الصين .. إلى فلسطين .. وحتى البوسنة .. والسنجق .. وكوسوفا .. الخ .. الخ ..

- واختيار القانون الذى يُحكم به الإنسان ، حق من حقوق الإنسان .. اللهم إلا إذا كان هذا الانسان مسلما ، وكان هذا القانون هو الشريعة الإسلامية .. فإن الأمر يصبح «أصولية» تمثل الخطر المهدد للعالم ، والتطرف ، والتشدد ، والرجعية ، والظلامية .. والإرهاب ! ..

- والسيادة - فى الدول القطرية والوطنية والقومية - هى حق من حقوق الإنسان .. اللهم إلا إذا كانت هذه الدول عربية أو إسلامية ، فإن انتقاص سيادتها يصبح جزءا من مقتضيات العولمة .. لا مثيل له ولا مقابل فى دولهم الغربية .. فانتقاص السيادة على الأرض وفى السموات وفى المياه ، قد جعلته العولمة من «حقوقنا» نحن فقط ! ..

- ومثل ذلك «حق التسلح» لحماية الأمن الوطنى والقومى .. هو حق سيادى من حقوق الدول .. اللهم إلا إذا كانت عربية أو إسلامية ، فإن نزع سلاحها ، أو تقييده يصبح «حقا» لقوى الهيمنة والعولمة ! ..

- والأقليات .. من حقوقها أن تقيم دينها - إن كانت أقليات دينية - وأن تحافظ على تميزها الثقافى واللغوى - إذا كانت أقليات

قومية - وذلك دون أن تمثل «ڤيتو» على «هوية الدولة والقانون»، التى هى حق الأغلبية .. اللهم إلا إذا كانت هذه الأقليات مسلمة فى بلاد غير إسلامية، فإن الحرمان من حقوقها فى إقامة دينها يكون هو القانون! - من هدم المساجد فى الهند.. إلى تجريد الفتيات المسلمات من الحشمة الشرعية فى أوربا! - .. واللهم إلا إذا كانت هذه الأقليات الدينية غير مسلمة فى البلاد الاسلامية، فإنها - حينئذ - لا تكتفى لها العولمة بإقامة دينها، وإنما تجعل منها «ڤيتو» ضد إسلامية الدولة وقوانينها فى المجتمعات الإسلامية .. بل وتتخذ منها ثغرات اختراق للأمن الوطنى والقومى والحضارى .. وتكأة لكى يشرع الكونجرس الأمريكى لبلادنا معايير الثواب والعقاب! .. ذلك هو حال العولمة - ونماذج لهذا الحال - فى منظومة حقوق الإنسان ..

* * *

وفى الاقتصاد:

تعنى العولمة القبول بالاندماج فى حال من «البؤس - الفاحش» لا يرضى ويقبل به الا الخاطئون! .. فلو أن عالمنا، فى الاقتصاد، كان على شىء من العدل، أو قدر من التوازن، أو درجة من الرشاد، لما كانت عولمة هذا الاقتصاد كارثة تزيد الطين بلة فى هذا الميدان .

ولكن .. عندما يبلغ «النظام» الاقتصادى «العالمى»، فى ظل «الرأسمالية المتوحشة» - التى يريدون لها أن تكون قَدَرَ العالم، الذى ينتهى به التاريخ الإنسانى - عندما يبلغ هذا «النظام»

الاقتصادى ما بلغه الآن من الاختلالات العبثية ، والمفارقات والفوارق الفاحشة ، والمظالم البشعة ، والمخاطر المرعبة[28] .. فإن عولمة هذا «النظام» - الذى هو غربى فى الأساس - تصبح تعميما للبلوى ، وإشاعة للفحشاء ، وتحويل المضاربة والسمسرة المالية، «إلى غارات مالية»، سريعة الكر والفر، تدمر الاقتصاد العينى للدول، لأسباب تهم أباطرة المضاربات، ولا علاقة لها بالمراكز المالية الحقيقية للاقتصاد العينى الذى تصيبه هذه الغارات والمقامرات بالدمار على نحو ما حدث للنمور الآسيوية.. ويحدث للنمر اليابانى العتيد.. ويهدد مجمل الاقتصاد الرأسمالى العالمى الذى تريد العولمة دمجنا فيه[29]..

وهكذا أصبحت العولمة المالية بمثابة «الذعر المالى» ، بل والمقصلة التى تودى بحياة الاقتصاديات التى لا يرضى عنها ولا عن توجهات أهلها أباطرة «الاقتصاد المالى» وملوك المضاربات والمقامرات والسمسرة ، الذين - وهذه ليست مجرد مصادفة - جلهم من اليهود ، الذين احترفوا المعاملات الربوية ، والتجارة فى المال ، منذ ظهور الرأسمالية فى أوربا ، والذين تصاعدوا بالنظام الربوى إلى هذه «العولمة المالية» التى تقامر فى اقتصاديات العالم بأسره ..

● وإذا نحن شئنا مجرد مثال على ما تمثله هذه العولمة

---

(٢٨) تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٨م - الصادر عن البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة - انظر مقال صلاح الدين حافظ «هل أصبح الفقر قدرا علينا محتوما ؟» - الأهرام - فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٩٨م .

(٢٩) انظر د . محمود عبد الفضيل «أزمة النظام المالى العالمى» - وهو مقال - فيه عرض لدراسات بعض الاقتصاديين العالميين ، منهم اليابانى «إيزوكو ساكا كيبارا» ، والبروفسور «بيتر دركر» - الأهرام فى ١٥ يونيو سنة ١٩٩٨ م .

الاقتصادية من اجتياح الغرب والشمال لصناعات وتجارات واقتصاديات الجنوب ، فإن فيما حدث بين مصر ودول السوق الأوربية خير مثال . .

لقد رفعت الدول الأوربية على مصر قضية «إغراق للأسواق الأوربية» بالمنسوجات المصرية ، وحدثت أزمة بين مصر وأوربا ، خسرت فيها التجارة المصرية ٤١ ٪ من صادراتها . . وتزعمت فرنسا والدول الأوربية المتوسطية هذه الحملة ضد مصر - رغم ما يقال عن الحوار المتوسطى . . ورغم احتفال مصر مع فرنسا بذكرى مائتى عام على الحملة الفرنسية على مصر !! - . . حدث ذلك ، بينما صادرات مصر إلى فرنسا قيمتها ٤٠ مليونا من الدولارات ، وصادرات فرنسا إلى مصر ٧ مليارات من الدولارات . . وصادرات مصر إلى إيطاليا ٢,٧ مليونا من الدولارات . . وصادرا إيطاليا إلى مصر قيمتها مليار من الدولارات(٣٠) ! . .

وهذا مثال - مجرد مثال - على الاجتياح الذى تمثله «بشائر» العولمة . . وإذا كانت هذه هى «البشائر» . . فماذا ستصنع بنا العولمة الكاملة للاقتصاد ؟ ! . .



وفى الدِّين:

نعم . . فإنهم يريدون ، أيضا ، العولمة فى الدين ، بمعنى تنصير العالم ، وفى مقدمته العالم الاسلامى ! . . فبعد أن كانت أحلام الكنائس الغربية - فى مرحلة غواية الترهيب والترهيب - تقف

(٣٠) أنظر حديث الرئيس حسنى مبارك - الأهرام فى أول أكتوبر سنة ١٩٩٨م

عند العمل على تنصير بعض المسلمين ، فإن لم يكن فتشكيك بعض المسلمين فى دينهم ، أو فى مطلق الدين ! . . رأينا هذه الأحلام ، فى عصر العولمة ، تتصاعد إلى الحلم بتنصير كل المسلمين ، وطى صفحة الإسلام من الوجود ! . . فهم يشنون «حربا دينية» ، وبوسائل لا أخلاقية ، لا علاقة لها بمقاصد الدين - أى دين - ولا بحرية الدعوة - التى هى حق لكل أصحاب الديانات - . تحدث هذه الغارة النصرانية على عالم الاسلام ، رغم تراجع النصرانية فى الغرب ذاته ! . . لكن الحمية والعصبية والكراهية للإسلام جعلتهم يحاربون لتنصير المسلمين بدلا من أن يعملوا على تنصير أوربا وأمريكا ! ! . .

ولقد كان المؤتمر التنصيرى الذى عقد فى «كولورادو» بأمريكا - فى مايو ١٩٧٨م ، هو الإيذان بهذه المرحلة الجديدة . . مرحلة العولمة للدين ، بتنصير كل المسلمين - . . فرسمت «بروتوكولات» هذا المؤتمر مقاصد هذه المرحلة الجديدة ، وأقاموا المؤسسات لتنفيذ هذه المقاصد ، ووفروا الإمكانات المادية والتقنية والبشرية اللازمة للتنفيذ . .

ولقد انتقدت بروتوكولات قساوسة التنصير ، فى مؤتمر «كولورادو» ، المخططات التاريخية السابقة لتنصير المسلمين ، تلك التى لم تحقق شيئا يذكر أو يوازى الجهود التى بذلت . . فقالت : «لا يمكننا بعد اليوم اعتماد الأساليب القديمة للتنصير ، فى مواجهة الإسلام الذى يتغير بسرعة ، وبصورة جوهرية . وأن الغرض من عقد هذا المؤتمر هو الإيمان بعدم جدوى وفعالية الطريقة التقليدية لتنصير المسلمين» . .

وبدلا من الطرق التقليدية للتنصير، اعتمد مؤتمر «كولورادو» خطة التنصير من خلال الاختراق .. من داخل القرآن .. ومن داخل الثقافة الإسلامية .. وبالاعتماد المتبادل مع الكنائس المحلية .. والعمالة المدنية الأجنبية .. وتحاشي مواجهة إسلام الكتاب والسنة، واختراق المسلمين من خلال الثقافات الأسطورية المختلطة ببقايا الوثنيات .. بل وقرروا - وهذا غريب وعجيب من رجال دين - استخدام الكوارث والحروب والمجاعات والأزمات فى العالم الإسلامى، لتصبح معونات الغذاء والدواء - التى تقدمها إرساليات التنصير - هى المقابل للانخلاع من الإسلام! .. بل ورأوا فى هذه الكوارث الشرط الضرورى للتحول عن الاسلام إلى النصرانية! .

نعم .. لقد خطط المنصرون لمرحلة العولمة هذه، فقالوا: «إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. وهو حركة دينية مخططة تخطيطا يفوق قدرة البشر.. والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة إجتماعيا وسياسيا..

إن إسلام الكتاب والسنة أرض صلبة ووعرة بالنسبة للتنصير، لذلك يجب اختراق الإسلام فى صدق ودهاء!.

ولكي يكون هناك تحول إلي النصرانية، فلابد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس خارج حالة التوازن التي اعتادوها.. وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعي المتدني. وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهينة، لن تكون هناك تحولات كبيرة إلي النصرانية.

إن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمراً مهماً في عملية التنصير، وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها، التي كانت تناهض العمل التنصيري، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى..»[٣١]

هكذا .. وبدلا من الاعتراف المتبادل والقبول المتبادل بالديانات السماوية الثلاث - وهو ما صنعه الإسلام إزاء اليهودية والمسيحية، وكل الرسالات والكتب والنبوات - .. وبدلا من التعاون على تفعيل منظومة القيم الإيمانية .. رأينا بروتوكولات التنصير وقساوسته تخطط لعولمة الدين : أى اجتياح الإسلام على وجه الخصوص .. لتتكامل منظومة العولمة : التى تمثل إجتياح الغرب للشرق، والشمال للجنوب، والحضارة الغربية للحضارات غير الغربية فى مختلف الميادين .. فى «منظومة القيم» : و «مفاهيم وتطبيقات حقوق الانسان»، وفى «الاقتصاد» .. وحتى فى «الدين» !



(٣١) انظر الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو (التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى) طبعة مركز دراسات العالم الإسلامى - مالطا - وهو ترجمة للأصل الانجليزى الذى نشرته دار MARC فى كاليفورنيا سنة ١٩٧٩م . وانظر كتابنا (الغارة الجديدة على الإسلام) طبعة دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

لكن .. هل العولمة قضاء وقدر .. لا فكاك من الاندماج فيها؟؟

على درب الدكتور طه حسين - فى مرحلة انبهاره بالنموذج الغربى - عندما قال عن هذا النموذج : إنه طريق التقدم والتحضر الفذ ، الذى لا تعدد فيه ، وأننا يجب أن نسير فيه ونأخذه بحلوه ومره ، بما يُحب فيه ومايُكره ، وما يُحمد فيه وما يُعاب - على هذا الدرب من دروب الهزيمة النفسية ، والإحساس بالخجل من ثقافتنا العربية الاسلامية ، والدونية إزاء الثقافة الغربية ، والعجز عن مقاومة غزوها لبلادنا - على هذا الدرب البائس - الذى تراجع عنه طه حسين فيما بعد[٣٢] - يسير نفر من «مثقفينا» إزاء العولمة ، داعين إلى التسليم لها ، وإلى الاندماج فيها ، باعتبار ذلك قضاء وقدرا .. فهى فى نظرهم طوفان جارف ، أو - على الأقل - قطار .. إما الركوب فيه وإما الضياع ! ..

وجدير بالملاحظة أن مرحلة العولمة ، أى تصاعد غواية الغرب لنا بالتغريب إلى درجة الاجتياح ، كأنها قد حققت بالنسبة لهذا النفر من «مثقفينا» طوق النجاة ! .. فهم ، فى الأصل ، متغربون ، أمضوا حياتهم فى الدعوة إلى «الحداثة» على النمط الغربى ، حتى بعد أن تجاوزها الغرب إلى عدمية وعبثية وتفكيك «ما بعد الحداثة» ! ..

---

(٣٢) انظر كتابنا (الإسلام بين التنوير والتزوير) ص ١٥٨ - ١٨٠ .

وهم لا يشعرون بأى انتماء إلى ثقافتنا العربية الإسلامية - التى يضعونها فى عداد «الثقافات التقليدية» ، التى يجب أن تتوارى ، مخلية المكان لثقافة «الحداثة الغربية» . . ولقد كانوا، فى مرحلة ما قبل العولمة، يشعرون بقدر من الحرج «لاختيارهم»، دون أمتهم، النموذج «الوافد» دون نموذجنا «الموروث». فلما جاء الاجتياح فرحوا به، ظانين أنه يريح «ضمائرهم» من مسئولية «اختيار» و «تفضيل» الوافد على الموروث.. فالأمر قد أصبح، فى نظرهم، اجتياحا وقضاء وقدرا، لا اختيار فيه.. ومن ثم فلا «إثم» على الاختيار!.. حيث لم يعد هناك اختيار..

والطريف - المضحك المبكى - أن يتحدث هذا النفر من «مثقفينا» عن العولمة ، كقضاء وقدر ، يجب إسلام الذات الثقافية له ، فى ذات الوقت الذى يتمردون فيه على القضاء والقدر إذا كانا من الله !! . . ولقد كتب أحدهم - فى أحد المؤتمرات التى عقدت عن العولمة - يقول : «إن العولمة Globlization هى ظاهرة التوحيد الثقافى والاقتصادى ، التى يشهدها عالم اليوم - مع عدم إغفال النواحى السياسية والاجتماعية - . . وإن الحداثة الغربية عموما، والعولمة المعاصرة خصوصا، وما أفرزت من ثقافة، فى طريقها إلى أن تصبح ثقافة عالمية أو كونية شاملة بكل ما فى الكلمة من معنى، فلا شىء قادر على الوقوف فى طريقها، ولن تستطيع الثقافات التقليدية أن تصنع شيئا أمام ثقافة العولمة التى لا تصدها الحدود، أحببنا ذلك أو كرهنا، وافقنا أو رفضنا..»!![٣٣]..

(٣٣) د . تركى الحمد «هوية بلا هوية ، نحن و «العولمة» بحث فى مؤتمر القاهرة - إبرايل سنة ١٩٩٨م - عن «العولمة وقضايا الهوية الثقافية» صحيفة المدينة - السعودية - ملحق (الأربعاء) فى ١٥ إبرايل سنة ١٩٩٨ م .

فالعولمة ، قد جعلت ثقافة الحداثة الغربية ، قضاء وقدرا ، لافكاك من اجتياحه للثقافات التقليدية - ومنها ثقافتنا العربية الإسلامية - ! . .

وبصرف النظر عن الهجاء الذى يصيب ثقافتنا من هذا النفر من «مثقفينا» - من مثل وصفها بأنها «مفصومة العرى مع الواقع» وصاحبة «هوية متعالية مفترضة . أو صلتنا إلى حالة العماء الثقافى الذى نعيشه» ! . . بصرف النظر عن هذا الهجاء ، الذى يكشف عن أزمة الانتماء الوطنى والقومى والحضارى التى يعيشها هؤلاء المتغربون . . فإننا نريد أن نناقش - بموضوعية تامة - «الحجج» التى يسوقونها للبرهنة على أن إجتياح ثقافة الحداثة الغربية للثقافات غير الغربية قد أصبح قضاء وقدرا ، لا سبيل لنا غير إسلام الذات الثقافية إليه ! . .

إنهم يقولون :

● إن العولمة هى ثمرة من ثمرات التقدم المذهل فى ثورة وسائل الاتصال الحديثة ، تلك التى جعلت عالمنا قرية صغيرة ، زالت منها حواجز الهوايات الثقافية . .

ونحن نقول لهم : نعم . . لقد حولت ثورة الاتصال الحديثة عالمنا إلى قرية صغيرة . . لكن بيوت هذه القرية وسكانها ليسوا سواء ، حتى نتحدث عن اندماجهم وإزالة هويات الثقافات . . فأهل هذه القرية الواحدة فيهم : القاتل ، والمقتول . . وفيهم من يغتصب الأرض وينتهك العرض ويدنس المقدسات ، ومن يُخْرجون من ديارهم وتُهدم مقدساتهم ، ويُدفنون فى المقابر الجماعية . . إن شعوب أمتنا ، دون شعوب الأمم الأخرى ، تُحرم

من الحق الطبيعى فى تقرير المصير .. والحق الطبيعى فى أن تُحكم بالقانون الذى تريد .. وهى وحدها التى تُنْتَقَصْ سيادتها الوطنية والقومية على أرضها .. ويُفْرَض الحصار على شعوبها ـ وتُطَبَّقْ عليها أحكام الباب السابع فى ميثاق الأمم المتحدة .. وتنتشر على أرضها القواعد الأجنبية ، وترابط فى مياهها الأساطيل .. ويُنْزَع سلاحها .. وتُهان عقائدها وعاداتها وأنماط حياتها فى وسائل الاتصال الحديثة ، بهذه القرية العالمية الواحدة ! .. فأين هذا الاندماج الذى تتحدثون عنه بين أهل القرية العالمية الواحدة ؟ ! ..

بل وأين هذا الذى تسمونه «الاعتماد المتبادل» بين أهل هذه القرية الواحدة ؟ .. وهل يمكن أن يكون هناك اعتماد متبادل بين القاتل والمقتول ؟ .. أو بين الظالم والمظلوم ؟ .. أو بين من يغتصب الوطن ومن يتحول إلى شريد فى الآفاق ؟ ..

● ثم - وأنتم تتحدثون عن قضاء وقدر العولمة لثقافة الحداثة الغربية - أين ما صدعتم به رؤسنا من حديث عن الليبرالية وحرية الاختيار ؟ .. بل وعن التعددية ؟ .. أم هل ، ياترى ، قد انقلبتم نازيين وفاشست ، تؤمنون بوحدة الرأى ووحدة الثقافة ووحدة التوجه ، طالما أن مصدرها الحداثة الغربية ، وهدفها هو اجتياح هوية ثقافتنا العربية الإسلامية ؟ ! .. ومن أين ستأتى حوافز الإبداع - الذى تتحدثون عنه كثيرا - إذا زالت الخصوصيات فى الهويات الثقافية ، والتعددية فى النماذج الحضارية ؟ .. إن زوال التعددية الحضارية ، والتنوع فى الهويات

الثقافية - فى ظل هذا الخلل القائم بين هيمنة الشمال وبين استضعاف الجنوب - سيجعل «المرسل» - دائما - هو الشمال ، و «المتلقى» - دائما - هو الجنوب . . وسيحكم علينا بالتقليد لهذه الحداثة الغربية المتعولمة ، دائما وأبدا ! . .

ذلك لأن التعددية ، التى يراها الاسلام سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل - فى كل عوالم الخلق : المادية ، والنباتية ، والحيوانية ، والإنسانية ، والفكرية ، والثقافية . . الخ - هى الحافز على التميز ، ومن ثم على الإبداع ، وهى من ثم السبيل إلى الغنى والثراء للرصيد العالمى فى العلوم والثقافات . . بينما العولمة هى الأحادية الثقافية ، التى تشيع التقليد - الذى نشكو منه - وتحول دون الإبداع - الذى نحن فقراء فيه - . .



وأخيراً.. ما العمل ؟؟

إننا ، بإزاء تصاعد الهيمنة الغربية من مرحلة «غواية الترغيب والترهيب» إلى مرحلة «القسر على العولمة» ؛ أمام مخاطر حقيقية ، وتحديات جدية ؛ تحتاج من العقل العربي والمسلم ، في تيارات الأصالة : الوطنية والقومية والإسلامية ؛ إلى تدبر وتفكر .. وإلى حلول ، تحولها هذه التيارات إلى برامج توضع في واقع الممارسة والتطبيق ..

● ففي مواجهة تحدى «الهزيمة النفسية» - وهو أخطر تحدياتنا المعاصرة - الذى يبدد طاقاتنا ، ويذكى نيران الحرب الأهلية بين مثقفينا - في مواجهة هذا التحدى لابد من إنعاش الذاكرة التاريخية للأمة ، وذلك حتى نميز بين «**التعامل مع الواقع**» - وهو ما نحتاجه - وبين «**الاعتراف بالواقع**» - وهذا هو الذى يكرس المأساة ! ..

إن أمتنا قد عاشت ، وأقامت دينها ، وبنت حضارتها ، وصنعت تاريخها في مواجهة التحديات .. ولو أنها اعترفت بالأمر الواقع لما كان لها إنجاز ، بل ولا وجود ..

- لقد غيرت الفتوحات الإسلامية «واقع» عشرة قرون من الاستعمار الاغريقي والروماني للشرق .. ولم تعترف بذلك الأمر الواقع الذى استمر تلك القرون ..

– ولقد غيرت دول الفروسية الإسلامية – النورية .. والأيوبية .. والمملوكية – «واقع» الغزوة الصليبية التى دامت قرنين من الزمان (٤٨٩ – ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ – ١٢٩١ م)

– ولم تعترف الأمة «بالواقع» الذى حول القدس إلى مستعمرة لا تينية ، وحول المسجد الأقصى إلى كنيسة لاتينية ، تسعين عاما ..

– ولم تعترف الأمة «بالواقع» الذى امتلك فيه الصليبيون مفاتيح القاهرة ، وفرضوا فيه الجزية على أهلها .. ولا «بواقع» الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ – ١٨٠١م) ، الذى تحول فيه الأزهر الشريف إلى اصطبل لخيل بونابرت .. ولا «بواقع» الاستعمار الفرنسى الذى جعل الجزائر «إيالة فرنسية» لقرن وثلث القرن .. ولا «بواقع» بلوى الاستعمار الغربى الحديث التى عمت وطن العروبة وعالم الاسلام ، ولم ينج منها سوى بيت الله العتيق ..

لم تعترف الأمة – طوال تاريخها – بهذا الأمر الواقع الذى فرضته عليها التحديات .. وإنما تعاملت معه على النحو الذى غيره وطوى صفحته من الوجود ..

ونحن اليوم ، فى مواجهة تحدى الهزيمة النفسية ، محتاجون إلى منهاج – لا أقول فى «قراءة» التاريخ ، وإنما «للوعى» بالتاريخ : ينعش ذاكرة الأمة ، لتدرك رسالتها ، ولتعرف أن رسالتها هذه ، ومنهاجها التاريخى فى التعامل مع الواقع وتحدياته ، قد جعلها «العالم الأول» على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون ، بينما عمر الغرب ، كعالم أول ، لم يكمل سوى قرنين من الزمان ..

● وإن الاهتمام بما يكتبه الغربيون أنفسهم عن الأمراض الحضارية القاتلة التى تأخذ بخناق النموذج الحضارى الغربى ؛ كفيل - هو الآخر - بمعالجة هذه الهزيمة النفسية التى أصابت نفرا من «مثقفينا» المتغربين . . وكفيل بإشاعة قدر من «الكبرياء المشروع» ، و بالثقة الموضوعية» بالذات ، والأمل فى الله ، الذى لا يقنط من روحه ونصره إلا القوم الكافرون ! . .

● ولابد - فى مواجهة العولمة الغربية - من التمييز فى الغرب بين مستويات ثلاث :

- فهناك الإنسان الغربى ، وهذا لا مشكلة بيننا وبينه . . بل إن لنا فى بعض دوائره الفكرية وتياراته السياسية الكثير من التفهم والمناصرة والتأييد . .

- وهناك العلم الغربى - وخاصة فى ثمرات إبداع العبقرية الغربية فى العلوم الطبيعية وتطبيقاتها - . . وفيه تتمثل «الحكمة» التى نحن مدعوون ، بمعايير الدين والدنيا ، إلى طلبها والتتلمذ على أهلها والاستلهام لحقائقها وصوابها . .

- وهناك - أخيرا - «المشروع الغربى» ، الذى لا نعاديه إلا عندما ينفى مشروعنا العربى والاسلامى . . وهكذا ، يجب أن ننظر إلى الغرب ، فلا نخلط بين مستوياته وشرائحه ، ولا نحرم أمتنا من تأييد الأنصار والأصدقاء . . ففى الغرب مصادر قوة لنهضتنا ، إذا نحن أحسنا التعامل مع الإنسان الغربى ، وتيارات الفكر الغربى ، وإمكانات العلم الغربى . .

● وفى الاقتصاد .. لابد - كى نواجه الاجتياح الغربى - من : زراعة غذائنا فى أرضينا . . وتكامل صناعاتنا وتجاراتنا فى

الإطار العربى والإسلامى ، وصولا إلى السوق المشتركة والكتلة الاقتصادية المتكاملة ، التى تتعامل مع العولمة من منطلق وبمنطق «الاعتماد المتبادل» الحقيقى ، لا الموهوم .. مع جعل الأولوية فى الاعتماد المتبادل لحضارات الجنوب ، وليس للغرب الساعى إلى نفى الآخرين ..

فعلى قاعدة التكامل الاقتصادى ينهض التفعيل لمنظماتنا الاقليمية العربية والإسلامية ..

● وفى الفكر والثقافة : لابد من تنمية تيار وتوجه الإحياء والتجديد والاجتهاد ، والذى هو وسط عدل بين تيارى : الجمود والتقليد .. والاستلاب الحضارى والتبعية والتغريب ..

● وفى العلاقة بين حضارتنا الإسلامية والحضارات الأخرى : لابد من الإيمان بالتعددية الحضارية - فعالمنا منتدى حضارات - وليس حضارة واحدة .. والعلاقة بين هذه الحضارات يجب أن تكون «تفاعلا» يبرأ من غلو «الانغلاق» وغلو «التبعية والذوبان» .. كما يجب أن تقوم هذه العلاقة على فلسفة «التدافع .. والتسابق .. والتنافس» ، التى ترفض غلو «الصراع» وغلو «السكون والموات» ..

* * *

تلك هى سبيل التحديد .. والتأكيد .. والإبراز لعناصر هوية ثقافتنا العربية الاسلامية ، فى مواجهة اجتياح العولمة الغربية ..

- إن الأرض التى نعيش عليها ، ليست مجرد تراب أو طين ..

وإنما هى : الوطن .. ووعاء الذكريات .. وديوان التاريخ .. ومسيرة الأجداد .. ومصنع المقدسات .

- واللغة التى نتكلم بها ، ليست مجرد أداة تعبير ووسيلة تخاطب .. وإنما هى : الفكر .. والذات .. والعنوان .. بل ولها قداسة المقدس ، التى أصبحت لسانه منذ أن نزل بها نبأ السماء العظيم ..

- والعقيدة التى نتدين بها ، ليست مجرد «أيديولوجية» .. وإنما هى : المطلق .. والعلم الشامل والكلى والمحيط .. ووحى السماء ، المتجاوز للنسبى .. إنها الحق المعصوم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

- ومنظومة القيم التى تمثل مرجعيتنا فى السلوك .. ليست نسبية ، ولا مرحلية .. وإنما هى : جزء من الثوابت ، وبعض من المقدسات ..

- وإن آثارنا ليست مجرد أحجار .. وإنما هى : الإبداع التاريخى للذات التاريخية ، تعبيرا عن الروح والوجدان والمثل الجمالية ..

- وإن منتجاتنا ليست مجرد سلع للإشباع المادى .. وإنما هى : منتجات وطنية ، لها مذاق خاص .. إنها الزينة للبلادنا ، ولأجسادنا .. وإشباع للروح مع الجسد ..

بهذه الروح .. وبهذه المعالم على طريق الإحياء والتجديد ، تواجه أمتنا تحديات العولمة ، وتنجو من الاجتياح الغربى ، وتواصل مسيرتها الحضارية ، كما صنعت قديما - ودائما - فى مواجهة التحديات الشرسة ، التى لم تهدد هويتها فقط ، وإنما هددت الوجود ! ؟

صدر من سلسلة (فى التنوير الإسلامى)

١ - الصحوة الإسلامية فى عيون غربية .	د . محمد عمارة
٢ - الغرب والاسلام .	د . محمد عمارة
٣ - ابو حيان التوحيدى .	د . محمد عمارة
٤ - دراسة قرآنية فى فقة التجدد الحضارى .	د . سيد دسوقى
٥ - ابن رشد بين الغرب والاسلام .	د . محمد عمارة
٦ - الانتماء الثقافى	د . محمد عمارة
٧ - تنصير العالم .	د . زينب عبد العزيز
٨ - التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات .	د . محمد عمارة
٩ - صراع القيم بين الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
١٠ - د . يوسف القرضاوى : المدرسة الفكرية . والمشروع الفكرى	د . محمد عمارة
١١ - تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم .	د . سيد دسوقى
١٢ - عندما دخلت مصر فى دين الله .	د . محمد عمارة
١٣ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية .	د . محمد عمارة
١٤ - المنهاج العقلى .	د . محمد عمارة
١٥ - النموذج الثقافى .	د . محمد عمارة
١٦ - منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق .	د . صلاح الصاوى
١٧ - تجديد الدنيا بتجديد الدين	د . محمد عمارة
١٨ - الثوابت والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة .	د . محمد عمارة
١٩ - نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم .	د . محمد عمارة
٢٠ - التقدم والاصلاح بالتنوير الغربى .	د . محمد عمارة
٢١ - فكر حركة الاستنارة . . وتناقضاته .	د . عبد الوهاب المسيرى
٢٢ - حرية التعبير فى الغرب من سلمان رشدى إلى روجية جارودى .	د . شريف عبد العظيم
٢٣ - أسلامية الصراع حول القدس وفلسطين .	د . محمد عمارة
٢٤ - الحضارات العالمية تدافع؟ . . أم صراع .	د . محمد عمارة
٢٥ - التنمية الاجتماعية بالغرب ؟ . . أم بالاسلام؟؟	د . عادل حسين
٢٦ - الحملة الفرنسية فى الميزان .	د . محمد عمارة
٢٧ - الإسلام فى عيون غربية . . دراسات سويسرية	ترجمة ا . ثابت عيد
٢٨ - الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة . . أم تفتيت وأختراق .	د . محمد عمارة
٢٩ - ميراث المرأة وقضية المساواة .	د . صلاح الدين سلطان .
٣٠ - نفقة المرأة وقضية المساواة .	د . صلاح الدين سلطان .
٣١ - الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية	د . محمد خاتمى
٣٢ - مخاطر العولمة على الهوية الثقافية	د . محمد عمارة

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨
طبع بمطابع الشركة بمدينة السادس من أكتوبر

إلى القارئ العزيز ..

فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشرى
- د . حسن الشافعى
- د . محمد سليم العوا
- ا . فهمى هويدى
- د . جمال الدين عطية
- د . سيد دسوقى
- د . كمال الدين إمام
- د . عبدالوهاب المسيرى
- د . شريف عبد العظيم
- د . عادل حسين
- د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

